معارف
ISSN 1112-7007
EISSN 6804 -2600
المجلد 16/ العدد 2 (ديسمبر 2021): ص.ص: 872-890

المعركة الروحية والأخلاقية من أجل الحضارة عند ابن خلدون

The spiritual and moral battle for civilization according to Ibn Khaldun

د. جويدة غانم*

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة البويرة، الجزائر،
Samiraphilo_2007@yahoo. fr

تاريخ الاستلام: 2021/10/24؛ تاريخ القبول: 2021/12/05؛ تاريخ النشر: 2021/12/31

ملخص:

يعد التاريخ في الخطاب الخلدوني بمثابة العلم بحقائق الواقعات التي لا تنفصل عن تلك الأسباب الخفية والمعلنة للأفعال البشرية على مدار الأزمنة، فالحديث عن تراجع الدولة وانحطاطها أو في تقدم الدولة وغلبتها، أفرزته عوامل متمخضة من تلك النفسيات المتصارعة إما لسيادة الرغبة والشهوة والرغد والبذخ وانحلال الوازع الديني، فيجعل من مصير الروح الحضاري أن يكون في الحضيض الأسفل، أوفي تحرك الحضارة نحو القيم الأخلاقية العليا حيث تتحرك الروح الكلي إلى قمة الهرم لتحقق رغبتها الكبرى في التوسع والازدهار والتطور، هذا ما يؤول إلى إعادة النظر في كيفية استنطاق التجربة الخلدونية لتفكيك الشروط التاريخية والدينية والقيمية في انبثاق الفعل الحضاري إيجابا أو سلبا، ماضيا وحاضرا، وأثرها على وحدة العمران البشري ق والأخلاقية وإحداث توترات في القيم والمنظومات الكبرى للعقيدة في صراع حضاري كبير مع منظومات الآخر القيمية.

الكلمات المفتاحية: الحضارة؛ التاريخ؛ الأخلاق؛ ابن خلدون؛ القيم.

Abestract:

History in Khalduni’s discourse is tantamount to knowing the facts of the realities that are inseparable from those hidden and

* المؤلف المرسل.

declared causes of human actions throughout the ages. Religious motivation makes the destiny of the civilized spirit to be at the bottom, or in the movement of civilization towards higher moral values where the total spirit moves to the top of the pyramid to achieve its great desire for expansion, prosperity and development. The historical, religious and value conditions in the emergence of civilized action positively or negatively, past and present, and their impact on the unity of human urbanization, which calls for talking in a current language and conforming to the past about the state of the Arab state and the tragedies of its division into sect states instead of the national state, and the consolidation of immorality instead of morals and ethics, and the creation of Tensions in the major values.

Keywords: Civilization; history; morals; Ibn Khaldun; values

المقدمة:

الحديث عن كيفية بناء الحضارات وسقوطها، يحتاج إلى تمحيص دقيق متكامل لمختلف الأنظمة الاجتماعية والسياسية والثقافية، وأنساقها المختلفة في مختلف البنى الدينية والمعرفية والإيديولوجية، ليس لغرض البحث عن مفهوم الحضارة فقط، ولا للبحث في سؤال لماذا تشكلت الحضارة؟ ولكن البحث في سؤال كيف تتشكل الحضارة؟ وكيف تنساق مساحاتها المتعددة مع مطالب الإنسان الجامحة أحيانا، والماثلة ضمن نظام أخلاقي وسلوكي أحيانا أخرى؟ ولا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا بدراسة تفكيكية بنيوية لحال المجتمع والإنسان، والأخلاق والسياسة والقيم، والاندفاع والتهور والتمدد والتقلص، كما يقتضي في هذا الأمر الولوج في بعض تفاصيل الحياة الإنسانية التي تضافرت مع طبيعة العمران والسلطان، ما يستلزم تفكيك الأنساق المعرفية للدولة من وجهة نظر الفكر الخلدوني خاصة من حيث المعاينة التي أجراها إلى الظرف الانحطاطي الذي آلت إليه الدولة الإسلامية في المشرق والمغرب، وغياب العمل الأخلاقي في المحافظة على ركائز الدولة الذي ولد فيما بعد صراعا خطيرا بين القيم الحقيقية الخيرة لقيام الحضارة وبين القيم السيئة التي افتقدها الإنسان في تشييد الحياة الحضارية، ما يستلزم فهم النتائج الأخلاقية على مستوى أكثر دقة وتتبعا لصورتها الكلية المتحولة، انطلاقا من اللحظة الموضوعية لتلك العلاقة الجدلية الثلاثية

الموجودة بين الإنسان والدولة والقيم، ما يفسر وبمنهج قراءة الغائب بالشاهد والعكس حال الدولة العربية اليوم وانقسامها إلى دول طوائف بدل المحافظة على الدولة الوطنية، وانهيار مؤسسات المجتمع المدني بكل تخصصاتها ووظائفها، وانطلاقا من تحديد المجال الحيوي الذي صاغ فيه ابن خلدون جملة أفكاره في استقراء واقع الدولة العربية وشروط قيام الحضارة وسقوطها، يمكن الاعتماد على قراءة منظورية لواقع المعرفة والوجود والقيم، ورصد تموجات الفعل الإنساني الأخلاقي وغير الأخلاقي في التاريخ، عبر النظر في محتوى الإشكال التالي:

- على أي أساس نظر ابن خلدون للوقائع الأخلاقية ضمن التاريخ الكلي للاجتماع البشري؟

- وما المآل الذي اتجهت نحوه المعركة الوجودية الكبرى في تثبيت قيم التمركز الحضاري للدولة العربية؟

يكمن الكتابة في هذا الموضوع آنيا إلى استجلاء ظروف ومأساة واقع المجتمع العربي الذي حينته الكولونيالية وما بعدها وشطرته الحداثة إلى شطرين، متقدم ومتخلف، ونكسته الأنظمة الاستبدادية ومعالم الثقافة الهجينة التي دجنت القيم والعلم وحرفت أصول الأخلاق والسياسات، ما يؤول البحث أن يحقق الأهداف التالية:

- إبراز أهمية الوعي الخلدوني في قراءة الاجتماع البشري أخلاقيا وسياسيا.
- معرفة الصراع الروحي الدائر بين المشكلات السياسية والأخلاقيات الاجتماعية.
- إعادة قراءة المنهج النقدي القياسي (قياس الشاهد بالغائب والعكس) على التراكمات المعرفية التاريخية التي خلفت مجتمعا عربيا فاشلا، والاستفادة مجددا بمثل المنهجية التاريخية الخلدونية لذلك.

من هذا المنطلق سنتبع في هذه الدراسة المنهج المقارن النقدي، الذي يستدعي الأسئلة العقلية في مفهوم الصراع بين القيم النفسية والدينية، ومختلف التوابع الاجتماعية والتاريخية، ومفهمة العلل وتحليل الأثر في الأخلاق والسياسات والأحوال الدينية والقيم، فيغدو المنهج المقارن صفة ملازمة للنماذج الإدراكية التي تفعلها الظاهرة التاريخية ضمن هذا السياق المدروس.

المبحث الأول-الرؤية المعرفية الخلدونية للأخلاق:

لا يمكن النظر في المستوى العام للأخلاقيات الكلية في التنظير الخلدوني، إلا بالرجوع إلى تلك الانبثاقات الموضوعية لعمل الأخلاق داخل الكيان الاجتماعي العربي، الذي ضلت أسئلة نهضته وقومته الحضارية، تطرح ذلك الجدل المستمر في إدراك وظائف الأخلاق ضمن مؤسسات الدولة الكبرى، واحتكارها المتجذر للتحولات الاجتماعية المنبثقة من حالات التصدع والانسحاب من جهة، ومن حالات التقدم والتحضر من جهة أخرى، ما يؤول أن إدراك الخلدونية في قراءة التجربة الأخلاقية، لأجل فهم امتلاك الأسس الرئيسية للحضارة، التي يستلزم من خلالها أن يوضع ابن خلدون "تحت النظرة البنيوية نفسها التي كانت لمؤرخنا عن عالمه المحيط، النظرة الجامعة والمهتمة بالكل"[1].

بالتالي فإن مجال الدراسات الأخلاقية في الفكر الخلدوني، ينظر له من خلال صلة الوصل مع تلك التغييرات الاجتماعية والوضعية للمبادئ الأخلاقية، التي قد تؤول إلى استثمارها وتفكيكها بمنهج علمي مستمد من آثار الظواهر الاجتماعية ونزعاته الطبيعية والدينية والسياسية، حيث أن مادة الأخلاق الحية هي الجريدة والشارع والمعركة التي نخوضها في كل اليوم[2].

و ذلك عبر استقراء العناصر التالية:

-**الطبيعة:** من حيث أنها المحتوى العام الذي تجري فيه الوقائع والأحداث.

-**التاريخ:** كونه المجال الذي تتحدد فيه التحولات الإنسانية وتقدير مواطن قوتها وضعفها.

- **الإنسان:** حيث يعد النسق الأبرز في تعيين التجارب السلوكية الانفعالية والافتعالية، قصد تكوين المشهد العام لامتلاك الأدوار التاريخية الإيجابية وعدم امتلاكها.

(1) سالم حميش: الخلدونية في ضوء التاريخ، (دط). المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2006م، ص24.
(2) شريط عبد الله: الفكر الأخلاقي الخلدوني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1975م، ص170.

-أ-الأخلاق في منظور العصبية والملك والعمران:

يقتضي في هذا المقام مناقشة كل معطى مادي وعقلي لجملة من الظواهر الاجتماعية من وجهة علم الأخلاق، والكشف عن أهم المتغيرات التي تطرأ مادتها ووضعياتها ضمن التجارب الحضارية المختلفة وبالخصوص المناخ العربي الإسلامي، كما يتم تفسير حقيقتها عبر "تحديد الحادث التاريخية تحديدا مضبوطا، وهو العلم بالسياسة كممارسة فعلية للسلطة والعلم بالدولة كمحور في الحياة الاجتماعية التاريخية، والعلم بكل الأحوال الاجتماعية ابتداء بشروطها الطبيعية وانتهاء بأعلاها أي الأخلاق"[1].

إن النظر في المنظومة الأخلاقية في الفكر الخلدوني، يطرح تلك الحقيقة الطبيعية التي لازمت انهيار الأنظمة السياسية في دول المشرق والمغرب العربيين، حيث تحول الحكم في الإسلام ابتداء من اجتماع السقيفة من خلافة إلى ملك، ما لزم عن هذا الوضع التغيير في السياق السلوكي والأخلاقي الذي ثبته دستور المدينة حال وجود النبي، وبعد وفاته انقلبت الأوضاع الاجتماعية إلى اعتبار هذا النوع من الملك سياسة وأخلاقا، وأعطت مفهوما جديدا للحق وللحرية والبقاء والقوة، ولو على حساب الفرد والجماعة، بحجة المصالح العامة للأمة، ويطرح ابن خلدون التغييرات السياسية من خلال النظر في تغيير الواقعة الأخلاقية ذاتها من خلال قوله:" ولما كان الملك طبيعيا للإنسان لما فيه من طبيعة الاجتماع، ولما كان الإنسان اقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة، لأن الشر إنما جاءه من القوى الحيوانية التي فيه، وإما من حيث هو إنسان فهو إلى الخير وخلاله أقرب والملك والسياسة إنما كان له من حيث هو إنسان (...) فإذا خلال الخير هي التي تناسب السياسة والملك" [2].

وكل ما يترتب عن هذه الممارسات الأخلاقية بشقيها الإيجابي أو السلبي، سيُبنى ضمن التصادم النفسي والعلائقي للموضوعات الخارجية لأخلاق الفرد والمجتمع، إذ أن الفرد لا يستقيل عن هدفه الخاص في بناء ملكه ومجده، وإنما يُعيد النظر في القوالب السلوكية المتعددة لمختلف العادات الخلقية، التي ستغير من موضعة الحكم الأخلاقي

(1) ناصيف نصار الفكر الواقعي عند ابن خلدون، دط، دار الطليعة بيروت، لبنان، 1994م.، ص155.

(2) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، (دط) الدرا الذهبية للنشر والتوزيع، القاهرة،، 2006م، ص162.

اتجاه الأنظمة الاجتماعية والسياسية المتداخلة.

يقتضي من هذا الأمر، وجود عصبية فائقة في محافظتها على هذا النوع من السياسة التي أشار إليها ابن خلدون، لأنها شرط أساسي في بناء الدولة والمحافظة على النظام الاجتماعي العام وتوحده والشعور بتلك الحمية الموجودة بين أعضائها، حيث يؤدي الوصول إلى السلطة بواسطة الروح الجماعية والهدف المشترك لتحقيق غاية الدولة ومجدها الأكبر، باعتبارها القوة التي تؤسس بقيام نظام الدولة[1].

ومادامت المدن تحتاج في أحوالها وأهوالها إلى من يعضد شوكتها وبقائها، فإن الفكر الخلدوني يقر بضرورة تواجد العصبية التي ستحمي الملك والسلطان، ليس باعتبارها وسيلة في المحافظة فقط، وإنما تشكل في حد ذاتها منطلقا أخلاقيا رئيسا في المحافظة على العمران الإنساني وتطويره، ما يؤدي لحظة وجودها إلى انبثاق الفعل الحضاري للاجتماع، وتسود الغلبة والقوة في جميع ميادين الدولة وأنظمتها، وفي هذا الأمر يقول ابن خلدون "ولما كانت الرياسة إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها وتتم الرياسة لأهلها (...) لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون، والمزاج في المتكون لا يصلح إلا إذا تكافأت العناصر، فلا بد من غلبة أحدهما"[2].

وقد أخذت العصبية اهتمام كبيرا عند الكثير من المفكرين، وأخذت عدة معاني على حسب اتجاهاتهم الفكرية والعلمية، فليون غوتييه (L. Gauthier) فسرها على أنها روح التكاتف الذي يظهر بين أفراد الاجتماع وتعاونهم وتوحدهم، وفسرها آخرون على أنها تلك الوحدة التي تجمع بين الأفراد في صورة جسم واحد، كما فسرت تفاسير تقترب من مفهوم القومية، رغم أن ابن خلدون لم يستخدمها في إطار المفاهيم الضيقة، لكنه أعطى لها مساحات شاسعة في التعريف والتحليل وعدها الركيزة الأساسية لالتحام الروابط الاجتماعية، حيث أن قيام الدولة واستقرار الوضع فيها، يرجع للدور الذي تمثله العصبية، باعتبارها وفقا لتعبير الخلدوني القانون الأساسي أو المعادلة الرسمية

(1)بن الصغير ابن عمار: التفكير العلمي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر، (دت)، ص46.

(2) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، ص149.

التي تفسر تطور الظواهر السياسية[1].

من هذا المنطلق تتشكل الإرادات السلوكية في تغيير وضع الدولة إلى الأحسن، وتتوحد الأهداف والمنطلقات في المحافظة على المجد والعز، والذهاب إلى بسط نفوذها على مؤسسات المجتمع المدني، حيث يغدو جانبها النظري متوافقا مع ما تؤول إليه الأسس العملية لهيكلة الفعل الحضاري، الذي سيندرج فيما بعد ضمن مصلحة الدولة العليا اتجاه موقعها ومكانتها.

وقد تشكل العصبية اندرجا متداخلا مع الحالة العاطفية والذهنية والسلوكية التي تظهر في العلاقات مع الجماعات البشرية لما تكون في حال بدواة، والتي يأخذها الملك والسلطة صوب التحضر، كما يبرز في صراعات متشابكة تظهر في المدينة أو الدولة[2].

إن الوصول إلى المعايير الأخلاقية في إطارها السياسي، والحديث عنها باللغة السياسية الخلدونية، نستحضر من خلاله الواقع الذي عاشه ابن خلدون حال تدوينه لديوان المبتدأ والخبر وكذلك تدوينه للمقدمة، التي كانت محصلة لمظاهر انحطاط الدولة الإسلامية في المشرق والمغرب، وفي دراسة هذا الوضع لم يفصل فيه العمل الأخلاقي عن العمل السياسي، كون الأخلاق هي القوام الأساسي الذي يعضد السياسة في الدولة، وأخذ تلك التجاوزات الناجمة من تلك الارتدادات القبلية والطائفية التي ستنعكس سلبا على صورة الدولة ومآلها، خاصة عندما يتحدث عن انقسام الدولة إلى أكثر من دولتين أو ثلاث " كما وقع في ملوك الطوائف بالأندلس وملوك العجم بالمشرق وفي ملك صنهاجة بإفريقيا، فقد كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون إفريقية ثائر مستقل بأمره (...) وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن يعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب، فيقتسم أعياصها أو من يغلب من رجال دولتها الأمر وتتعدد فيها الدول".[3].

وإذا كان الاجتماع الإنساني لا يقوم إلا بوحدة العمران وتكامله، فإن الحكمة

(1) بن الصغير ابن عمار: التفكير العلمي عند ابن خلدون، ص42.

(2) بن الصغير ابن عمار: التفكير العلمي عند ابن خلدون، ص04.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، ص319.

الدنيوية اقتضت وجود علاقات تداخلية بين الملك والأفراد من جهة، وبين نسق الجماعة ونظام الدولة من جهة ثانية، وبما أن الإنسان عنصرا أساسيا في بناء الدولة وتشييد قيم الحضارة، فإن الرؤية الخلدونية تقر بأن " الملك طبيعيا للإنسان لما فيه من طبيعة الاجتماع (...) والملك والسياسة إنما كان له من حيث هو إنسان لأنها خاصة للإنسان لا الحيوان، فإذا خلال الخير هي التي تناسب السياسة والملك (...) وأن المجد له أصل ينبني عليه، وتتحقق به حقيقته وهو العصبية (...) وإذا كان الملك غاية للعصبية، فهو غاية لفروعها، وهي الخلال، لأن وجوده دون متمماته كوجود شخص مقطوع الأعضاء أو ظهوره عريانا بين الناس"[1].

على هذا الأساس يرى ابن خلدون مدى تكامل الصور الاجتماعية ببعضها البعض، حيث يقترح فهم تلك الحيوية السياسية التي تنتج من متطلبات الحضارة الجديدة وتجاوز كل غاية استبدادية من حركات تمرد وعصيان قد تؤدي بالفعل إلى انهيار الحكم السياسي وضعف حكامه ووزرائه لحظة هرم الدولة وتأزم مناخها الاجتماعي والسياسي.

يحتل الموقف الخلدوني الأخلاقي مكانة متميزة، على غرار موقف الفقهاء والفلاسفة، حيث يعتبر المُلك خصيصة طبيعية ضرورية من خصائص الطبيعة البشرية، وتميز ابن خلدون في طرحه لهذه المسألة، يعود إلى ملاحظة واقع البشر الخاضع للإكراه والحتميات التي تتحكم فيها الوقائع الفيزيائية المادية والاجتماعية، والتي تتحكم بدورها في العادات والتقاليد الخاصة بنظام القرابة والعصبيات الطبيعية السائدة في الاجتماع القبلي، الذي يتصارع دائما من أجل احتواء الملك والاستحواذ على السلطان[2].

اقتضت الفلسفة الأخلاقية أن تدخل في صراع مستمر بين الواقع والتاريخ، وبين مصلحة الدولة والمجتمع والإنسان، وبين مصلحة الحقيقة ومقاصد الشارع العام، حيث تقف المسلمات الأخلاقية في الفكر الخلدوني على رؤية تاريخية تقوم على المصالح المحسوبة للعصبيات التقليدية التي تتحكم في الجماعات المتصارعة، لتضل معارك التموقع الحضاري مستمرة في وظيفتها السياسية ومركزيتها الثقافية وصبغتها الدينية الحاصلة.

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، 162.

(2) محمد أركون: الاخلاق والسياسة، ط01، مركز الإنماء القومي. باريس، بيروت1990، ص139.

-ب -الأخلاق والظاهرة الدينية:

إن الدين في الفكر الأخلاقي هو أساس أي تجربة حضارية، حيث يظهره ابن خلدون على أنه أساس الغلبة، وذلك بكفالة الخلق وتنفيذ أحكام الله في خلقه حيث يتم من خلال مراعاة المصالح كما تشهد الشرائع، وكما تشهد له عصبية الدين الكفيلة بقدرة الخلال الحميدة على التوجيه المناسب للسياسة ونظام الحكم، بإتباع طريق الأشخاص المناسبين في ذلك[1].

قد أشار ابن تيمية إلى أن الصالحين هم أرباب السياسة الكاملة، وهم الذين يقومون بالواجبات ويتركون المحرمات، وهم الذين يعطون ما يصلح الدين بعطائه وينهون ما نهى الدين عن أخذه، كما يغضبون لربهم إذا انتهكت محارمه وفضائله، وبهذا الوجه من القصد يصلح الراعي والرعية، كما تتوطد الوحدة الجماعية للأمة، وتتسع مساحات العدالة والإنصاف من خلال السياسة الشرعية التي ثبتها الدين كروح ملازم لأي فعل حضاري[2].

قد أدرك ابن خلدون من خلال تحليله العلمي، مدى موضعة الأخلاق داخل النظام الاجتماعي والمعركة التي يحيلها الفعل الإنساني اتجاه الحيوانية الغرائزية وتحكمها في صياغة الفعل الحضاري، تكون عبر إدراك كنه التقاليد والعادات التي صنعها الإنسان العربي، الذي يبقى رهينا لتلك التحولات التي تطرأ على العوارض السلوكية من وجهة التصادم بين تركيبات المجتمع، أو تلاحمه من حيث ما تهدف إليه المصلحة العامة للدولة. كما أن مراحل التاريخ العربي الإسلامي ومناطقه، تحمل في طياته دعوة إلى التأمل في أصوله وأصول العلاقات الاجتماعية وبنيته المرفولوجية، التي تستدعي قراءة واحدة قد تكون شبيهة حال تفكيك الظاهرة الحادثة في هذا التاريخ المتداخل في أخلاقه وسياسته ومجاله الديني الأوسع[3].

تصبح الظاهرة الدينية عند ابن خلدون ظاهرة مركزية تساهم في انبثاق قوة

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، ص162

(2) أحمد عبد الحليم عبد السلام ابن تيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1993م، ص78.

(3) ناصيف نصار الفكر الواقعي عند ابن خلدون، دط، دار الطليعة بيروت، لبنان، 1994م، ص173.

الدولة، حيث تعد الأخلاق ضمن مستواه الديني عملا روحيا قد يؤجج نيران الحماسة في نشر قيم هذا الدين الذي يدخل ضمن المقومات الأساسية لتبلور الأسس القيمية للفعل الحضاري، ويشير ابن خلدون أن " الصيغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستنصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب مساو عندهم وهم مستميتون عليه وأهل الدولة التي هم طالبوها، وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل (...) فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم، بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء"[1].

من ثم يعد النظر إلى الأخلاق في إطار الدعوة الدينية، أهم ملمح في المحافظة على عصبية الدولة، كما تعطي القوة إلى الاجتماع الديني الذي يتآلف بواسطة العمل الروحي الذي بشرت به الظاهرة الدينية، وتصبح الدعوة الدينية في تحقيق الغلبة والملك والانتصار أهم علامة في التكون الحضاري "لأن الملك يحصل بالتغلب، والتغلب يكون بالعصبية، وجمع القلوب يكون بتأليف من الله إذا تعاضدت وتعاونت، أما إذا تداعت إلى الباطل والحيل إلى الدنيا، وساد الخلاف، وظهر الشقاق والنفاق، خرجت الدولة من ثوب العظمة إلى ثوب الخسة والمذلة"[2].

من ثم فإن قوام العظمة التي تبنى بها الدولة كيانها الحضاري، ترتكز آثاره على نوعين من الأخلاق:

-**أخلاق جماعية** : التي تستند إلى ذلك الوضع الرفيع الذي يقره نظام التكافل والتلاحم بين الأهالي من جهة، وبين الأهالي والحاكم من جهة أخرى، حيث يكون الولاء ميثاقا أساسيا لاستقرار المجتمع والمحافظة على وحدته، إذا تم النظر في مدلوله الأساس في الفقه السياسي الخلدوني وتكون للحضارة مدلولها الإمكاني في ثباتها وتغيرها، أو من حيث سيولتها الإنتاجية والإبداعية، كما أن تنظيم حياة المجتمع الدينية والخلقية تقوم على إزالة المنكرات التي تفسد الأخلاق والتي حرمتها الشريعة قصد الارتقاء بالناس خلقيا وتهذيب نفوسهم[3].

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، ص178.

(2) المصدر نفسه، ص178.

(3) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، ص163.

إن القراءة الخلدونية للأخلاق من زاوية الاستدعاء الديني، تسترجع من خلاله تلك الأهداف التي وضعتها الشريعة لحماية حياة المجتمع والارتقاء به إلى عصبية موحدة كلية، تحافظ على الاجتماع البشري من التمزق والتفكك بواسطة خلال الخير، وإذا انساق الملك إلى خلال الشر والفساد، تهدمت الدولة وزالت الحضارة وأصبحت الرذائل هي المسيودة في العمران، وعائدة بالخراب في المعاش والأرزاق، ويقول ابن خلدون أنه "إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب الرذائل (...) فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم، ويتبدل به سواهم، ليكون نعيا عليهم في سلب ما كان الله قد أتاهم من الملك"[1].

-**أخلاق فردية:** التي لا تخرج عن إطارها الجماعي في التعامل والتبادل بين الأفراد، والتي يعطي القيمة الأساسية للأخلاق الفردية، كونها البنية الأساسية في تحديد الغاية من تماسك أعضاء المجتمع وعلاقتهم بالسلطان، حيث أن "الشخصية التي ترتكز فيها السيادة وتستلم السلطة يرجع أمرها إلى اللذين يمتلكون القوة في المجتمع وبدون تأييدهم لا يمكن للسلطان أن يستمر في ممارسة سلطته، ويفرز ذلك بمعايير الجمهور على النصرة والطاعة، بذلك يستفيد جميع الأطراف في المجتمع"[2].

إن معايير تقييم الأخلاق ومعرفة صراعها البنيوي في بسط مساحات نفوذ الدولة، أو تقليص ممكناتها الوجودية، يقتضي النظر إلى تقييم أنساق الخير والشر، التي تخضع لعوامل النسبية والتطور، كون الفكر البشري يخضع دوما للتقنين والتقييم، وذلك لتأثره بعامل المكان وردات الزمان، الذي تتعارض فيه هذه الأنساق ما يؤدي إلى قلق الحياة واضطرابها، هذا يؤدي إلى إحداث تخلخل في الملك، مما ينعكس سلبا على الأدوار التي تصنع المجد والتحضر، ولكي تثبت الحضارة وتتسع يلزمها دستورا يتسم بالمرونة والشمول من أجل تحقيق الوحدة الموضوعية للذوات الفردية والاجتماعية، وتجنب لحظة الانهيار التي ستقضي على تحقيق الوحدة الموضوعية للعمران البشري.

(1) أحمد المبارك: آراء ابن تيمية في الدولة ومدى تأثيرها في المجال الاقتصادي، ط03، دار الفكر، دمشق، سوريا،، 1970م، ص14.

(2) شوقي إبراهيم أباظة وعبد العزيز الغنام: تاريخ الفكر السياسي، دار النجاة، بيروت، لبنان، دط، 1973م، ص137.

حاول ابن خلدون تعزيز نظريته بحجج دينية، بالنظر إلى المعركة القائمة بين المدح والذم، والحسن والقبح، والحيوانية والإنسانية، التي قد تؤدي إلى الانسجام في النوع البشري الذي يدافع عن حضارته وشرائعه من منظورية أن الأخلاق هي أساس العمـــران[1].

من هذا المنطلق يؤكد ابن خلدون أن المعركة الكبرى في وضع قواعد الحضارة، تتم دائما عبر النواة التي يتم بها تجديد القيم في الملك والسياسة، واحترام الشريعة بالمقدار الذي سمحت للعبد أن يحترمه في إطار الحياة الدينية، والتي تنصرف فيما بعد إلى إحداث الحماس الثوري في نصرة المظلوم، ضمن العلاقات الاجتماعية السائدة المتعاضدة طوعا مع النظام السياسي، الذي كان له أن يفعّل انتظام القواعد السلوكية، مع مجرى قواعد الملك والسياسة في المحافظة على وحدة الجماعة أو الأمة.

كما أن مراعاة جوانبها القيمية يخضع المفهوم المعروف للعصبية، والذي يتم تقديمه عمومًا على أنه روح العمل الجماعي أو التضامن أو التماسك نادرًا ما يُرى بخلاف من وجهة النظر السوسيولوجية، ولكن لها أيضًا علاقة بـ (عالم القيم) بل يمكن القول إن هذا المفهوم هو القيمة الأساسية في المجتمع القبلي[2].

إن شمولية الفكر الخلدوني يعكسه ذلك الطموح الواسع الذي تبناه في مشروعه، حيث كان فكره يتحرك داخل التجربة الحضارية العربية الإسلامية بكل وعي واختيار، والظاهرة الرئيسية التي هيمنت على تنظيراته هي ظاهرة التراجع والتفكك والانحلال التي أصابت التجربة السياسية في عصره، والتي تحدّث عنها في كتبه بكل مرارة وانفعال دائمين[3].

كما استحضر في دراسة الوقائع الأخلاقية إبستيمولوجية خاصة، تحركت ضمن تاريخ العلوم والآداب والظاهرة الدينية والسياسية وعلم الاجتماع والفلسفة، وكل أبعاد

(1) عبد الله شريط، الفكر الأخلاقي الخلدوني، ص179.

(2) Abdesselam Cheddadi : IBN KHALDUN,UNESCO: International Bureau of Education ,Paris, UNESCO: International Bureau of Education), vol. XXIV, no. 1/2, 1994, p03.

(3) محمد عابد الجابري التراث والحداثة، المركز الثقافي العربي،، بيروت، لبنان، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1993م، ص218.

الوعي الذاتية والموضوعية كمادة لصورة العمران من جهة، والحقيقة وتبيانها من جهة أخرى، حيث أن الصراع من أجل الحضارة يستلزم الجواب عن سؤال كيف تبنى الحضارة وتحافظ علة قوة مرجعياتها ومنطلقاتها؟

المبحث الثاني - الحضارة ومبدأ التحقق:

إن تحقق الحضارة يستلزم وجود تلك النواة الصلبة في معرفة أسباب الأحداث والوقائع، وتفكيك تفاصيل الوجود المرتبطة بمعطيات الزمان والمكان، التي قد تتعلق بحجم إدراك واستيعاب وقائع السوسيولوجيا العربية، وقيامها كعلم خاص للدراسة والبحث والنظر، من حيث أنها علم مرتبط بالعادات والتقاليد وبالسياسة وباللغة وبالثقافة، التي لعبت الدور الكبير في تكوين السوسيولوجيا الخلدونية، لأن الثقافة العربية تتحدد أولوياتها بالأخلاق التي أنتجتها، وهي بدورها أخلاق تعبر عن مجتمع يحمل في بنيته الفكرية أطر الوعي الاجتماعي الذاتي[1].

قد انعكست هذه القراءة التي قدمها ابن خلدون على الواقع الحضاري العربي الحالي، وعلى مشكلات العرب السياسية والثقافية والحقوقية والتاريخية المصيرية، خاصة في مثل هذه الظروف الحساسة التي تعانقت مع الكثير من الرواسب الداخلية والخارجية، ونتج عنها انقسام في الرؤى والمصالح، من خلال التركة المعرفية التي اختلقتها الأنساق القبلية والإسقاطات المفاهيمية لتلك المقاربات التي انطلقت من المركب الاجتماعي، الذي الزاخر بدلالات البداوة والحضر والعصبيات وفلسفة الاجتماع ونظريات العمران، وقد كان للفكر الخلدوني أن يفكك احتمالات التموقع الحضاري من وجهة نظر الوضع العربي الذي عاشه، والوضع الحالي الذي نترقب إصلاحه وترتيبه من منطلق استيعاب واقع" الموضع الجذاب لتداخل سلطات السيف والقلم والمال (...) ومسرح سن سياسة الدسائس والمناورات"[2].

ماذا يطرح الجدل السياسي والمعرفي في تفكيكه لمضمون مواقع السلطة الكبرى في تحيين الفعل الحضاري؟

(1) ناصيف نصار: الفكر الواقعي عند ابن خلدون، ص194.

(2) سالم حميش: الخلدونية في ضوء التاريخ، ص62.

وتظهر التحليلات التي قدمتها الفلسفة الخلدونية لواقع الدولة العربية، آثار القوانين السياسية الضعيفة على الاجتماع العربي وانعكاساته السلبية على المعاش والعشير، كون الأنظمة العربية لم تعتمد أي نظام سياسي صحيح للحكم في الحياة السياسية، كما فشلت في إقرار النظام الشرعي السياسي، واعتمدت على الأغراض الشخصية التي تسببت بفعل شهواتها على الهرج والقتل، أكثر مما بنت دعائم حكم متطور بناء في جميع ميادينه[1].

يبدو أن التمزق الذي ظهر في الحياة السياسية العربية، يعود حتما إلى تلك الإزاحات الرغبوية الفردية التي قدمها العقل الفردي على العقل العام الكلي، واشتركت فيها الغايات المعلنة أو الخفية في اصطناع الولاء، أو في تسييس الرغبة في الحكم نحو القسر والاضطرار ما أدى إلى تحقق الهرم الكيفي والكمي داخل المجتمع، وتتفكك أواصره وروابطه، كما اتجهت الدولة شيئا فشيئا إلى الاستبداد، حيث انعدمت الحريات، وازدادت القلاقل، وتكاثفت الضرائب، ودخل المجتمع في الفقر والعوز والحيف، وانعدمت العدالة، وازدادت المظالم، وانعدمت المقاصد الشرعية لحفظ الإنسان والمجتمع والدولة، وحسب التقدير الخلدوني لهذا الواقع فإن الظلم ليس هو " أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعم من ذلك، وكل من أخذ ملك أحد أو غضبه في عمله، أو طالبه بغير حق، أو فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع، فقد ظلمه، فجُباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وغاصب الأملاك على العموم ظلمة، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها"[2].

ينبثق من هذه الرؤية، ذلك الارتباط السلوكي الذي تعانق بين الأخلاق والسياسة في تقدير واقع الملك والعمران والاجتماع والدين في حالته القديمة والمعاصرة، حيث تصبح القيمة الأخلاقية متوخاة من القيم الأساسية المتناقضة للعمل السياسي الذي ضللته الأهواء وحالات الطغيان، كما استدرجت الروح العقلانية للعمل الخلدوني تفكيك الظواهر المعاصرة لحال الدولة العربية، والتي نتجت عنها الكثير من الانفلاتات

(1) عبد الله شريط، الفكر الأخلاقي الخلدوني، ص285.

(2) عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، ص314.

والانقلابات في ظل التأويلات المتصارعة للنصوص المقدمة ومقارباتها الواقعية العملية للمجتمع الإسلامي. ابتداء من قضية الخلاقة بين علي ومعاوية، إلى سقوط الخلافة ببغداد والأندلس، وسقوط الخلافة العثمانية 1924م، إلى الواقع الجديد الذي فرضته الكولونيالية وما بعدها على دول العالم الإسلامي.

تولد عن هذه الصور المزيد من الانشقاقات والانقسامات، تجلت صورها في انقسام الدولة العربية الوطنية إلى دويلات، متذرعة باللهجة المحلية، وانتماءاتها القبلية ومذاهبها الدينية، عزز هذه الرؤى ذلك الزعم النفسي للانتماء والتعصب الذي قسم الدولة العربية في عهدها الأول إلى ثلاث دول كما يقول ابن خلدون" دولة بني العباس بمركز العرب، وأصلهم ومادتهم الإسلام، ودولة بني أمية والمجددين بالأندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق، ودولة العبيدين بإفريقيا ومصر والشام والحجاز"[1].

وكان أن أعلنت الدولة العربية إفلاسها في هذه اللحظات، حيث اختفت العصبية الموحدة، وظهرت العصبية المفككة، واختفت الهوية الواحدة وظهر بديلها الهويات المتعددة التي انطوت على لهجات محلية تسعى إلى تكوين أوطان جديدة على حساب نوع هذه اللهجات ما أدى إلى تقلص الحدود المساحية للدولة، واتساعها أحيانا أخرى على حساب الحس القومي والأخلاقي والديني لمصير الدولة النهائي. الذي غابت فيه الديمقراطيات وحقوق الإنسان والعدالة، كما غابت فيه آليات الحوار الثقافي الصحيح بين شرائح المثقفين وانتماءاتهم المختلفة، وحلت أخلاق الشقاق والنفاق بين موظفي الدولة، وتفاوت مصالحهم الشخصية التي تقدمت على مصلحة عامة المجتمع والدولة، دون أن تأخذ بعين الاعتبار المحافظة على قوة الدولة وهيبتها وعصبيتها الكبرى، ودون أن تقدم واجب احترام الدولة كأخلاق سياسية التي ستؤسس لإقامة الحكم السياسي وتدبير مصالح الناس، من منطلق حفظ المقاصد العامة للدولة وللاجتماع وللدين والأخلاق. من ثم "فإن المحيط الطبيعي يؤثر في الأخلاق، وتحدد الأخلاق بدورها السياسة والقانون، فهي بمثابة المحرك أو القلب للآلة الاجتماعية"[2].

(1) عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، ص318.

(2) عبد الله العروي: الإيدبولوجيا، ط05، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، 1993م، ص54.

لعل ما هو جدير بالذكر، أن يعاد النظر في العلاقات التي ترسمها قوانين الحكم في النظرية السياسية للدولة، كما يوجب النظر في واقع العصبية كموقف وكطريقة توفر الجانب الخلقي والديني والقومي في صناعة الحضارة، كون الخصوصية الثقافية للواجب الأخلاقي الذي يقتضيه العمل الإنساني مرهونا بتكامل قوى الاجتماع " التي تربط الفرد العربي بجماعته، وقبيلته، فإذا تنصلت القبيلة أو الجماعة من أحد أفرادها فإن معنى ذلك أن حياته تصبح مهددة"[1].

إن تحصيل الأخلاق الخيرة في الدولة، يضع قاعدة النجاح الحضاري تلتمس جوانب السياسة والشريعة والحقوق والرعية والعدالة، ضمن الوعي المتحكم في المتخيل التاريخي، الذي يضع التجربة السياسية للمدينة الإسلامية في إطارها العقلاني، تجابه الآليات الحقيقية لمفهوم القيم ولمصطلح السياسة، ولجدلية الصراع المنبثقة من الشروط الاجتماعية والثقافية، وسلسلة الحتميات الإيديولوجية التي شكلتها التركيبة العمرانية للدولة العربية، وشرعيتها المستمدة من الأحكام السلطانية ذات الطاقة الذهنية والعملية لتدوين الفعل الحضاري في إطاره الوجودي الحقيقي، حيث تصبح "الخلدونية مرجع ارتكاز (...) وتجنيب الحاضر مخاطر إعادة إنتاجه (...) وخلق فضاء اعتباري حيوي بين زمنيتين صادمتين تلاحقنا على نحو تلازمي ضاغط، وهما: **(زمنية الانهيار)** و **(زمنية الانبهار)**، ذلك على أساس أن الأولى تربطنا بتاريخ عهودنا الوسطى المتأخرة حتى حلول الاستعمار، وأن الثانية تشدنا إلى الغرب المتقدم المهيمن بقوته العلمية والتقنية والعسكرية"[2].

إن النظر إلى الوظيفة الاجتماعية لل استنساخ القيم على هذا النحو. إنه يفشل هنا في فك ارتباط نفسه بموقف عام نجده فيه الفلاسفة والمفكرون الدينيون وعلماء الأخلاق يجتمعون على تسميته باسم (التنوير) والهدف يتطلب، اكتساب أشكال معينة من السلوك واستيعاب بعض القواعد والقيم. ولأن ابن خلدون لا يذكر بالضبط أي منها، ولكن يمكن التأكيد بأمان أنه يقصد هنا ما يسميه المفكرون المسلمون عادة

(1) إسماعيل زروخي: الدولة في الفكر العربي الحديث، ط1، دار الفجر، القاهرة،، 1999م.ص29.

(2) سالم حميش: الخلدونية في ضوء التاريخ، ص309.

(بالأدب المتعلق بالأعراف الاجتماعية أو قواعد السلوك)[1].

يتعامل ابن خلدون مع مفهوم القيم أيضا بضرورة تعلم المهن وتدريس العلوم فيما يتعلق بإثبات الوجود التاريخي من خلال ما استوقفنا في مقدمته وذكره لعلوم عصره الذي تم تخصيص لها المقدمة وفصل في أنواع العلوم يرى أن المعرفة والفكر مرتبط بالفعل وتوسيع مدارك الأجيال بالجمع بينما هو نظري وعملي، من حيث التوافق على المستوى البشري مع كمال الطبيعة الروحية وعلى المستوى الاجتماعي إلى المرحلة النهائية من المرحلة السياسية للدولة، كما يعطينا انتقال المجتمع من النظام الريفي إلى النظام الحضري. لكون تطور العلوم واستخدامها داخل أي اجتماع بشري هي كنتيجة الانتقال من (الضروري) إلى (الزائد) ، ومن (البسيط) إلى (المعقد).

من هذا المنطلق يغدو االصراع بين الجانب الروحي والاخلاقي عملية حسم لتشكيل البنى المعرفية والقومية للدولة، حبث ان انتصار الحضارة لا يخلو من جملة السمات الأخلاقية الواقعة ضمن المنظور الفردي والجماعي لشبكة العلاقات االاجتماعية، التي ستنفرد بالريادة الحاصلة في الصراع القاءم بين الاخلاق والسياسة من جهة وبين الدين والقيم الكبرى للتاريخ من جهة أخرى.

خاتمة:

إن حقل الثقافة السياسية في استراتيجية الرؤية الخلدونية، يطرح سؤالا مهما وهو كيف نصنع الحضارة؟ إلى سؤال آخر وهو كيف نحافظ عليها؟ رغم أن ابن خلدون وضع نظرية يقسم فيها الدولة إلى أطوار التكون، والازدهار والاضمحلال، لكنه يوظف اجتهاده في جملة من المقاربات والمفارقات التي يعقدها مع الحياة الروحية للأحداث والوقائع، والتي لا يفصلها عن التطور الحقيقي للتركيبة الاجتماعية، التي لها المبادرة الكبرى في خلق الحضارة والمحافظة عليها. والتي تكون نتيجتها كالتالي:

-أولا: تقدير الوجود الاجتماعي والمحافظة على تركيبته الجماعية المتنوعة، وحمايته من التناقضات الخارجية التي تستدعيها حالات التمزق من الخارج صوب الداخل، وذلك لحمايته وتأمين مساحات وجوده ونفوذه. حيث تضطلع العصبية الموحدة بصناعة

(1) Abdesselam Cheddadi: IBN KHALDUN, p03.

النموذج السياسي الذي يظهر في كتلة من الاستنفارات الذاتية السلوكية المرتبطة بالعادات والتقاليد، والاستنفارات الموضوعية التي تنتج من خلال موضعة هذه السلوكيات داخل الدولة، لأجل التوجيه الإيديولوجي الحضاري الذي ترغب فيه.

-ثانيا: الاجتهاد في الاعتناء بصرح الثقافة والعلم، وتشجيع العلماء على البحث والتأليف، حتى يتسنى تحقيق النهوض الحضاري . حيث يرى ابن خلدون ضرورة ملازمة الأخلاق للعلم، كون الحضارات التي تكونت صنع مجدها وعزها العلم الموجّه للبناء وترقية الإنسان، والعلماء الذي التزموا قواعد الشرع في نشر علومهم وتثبتها، ما يقتضي تكوين الإنسان الماجد الذي يبني أطر الفكر التقدمي الذي تستند عليه الحضارة في تثبيت مواقع قوتها ونهضتها.

-ثالثا: لا تتشكل الحضارة في نظر ابن خلدون إلا بالنظر الدقيق إلى الحقل الذي تقدمه المعنويات التي تدعم الهويات المشكلة لهذا الإرث، فتكون الخلال الخيّرة والأخلاق والقيم تجارب ثرية متحققة موضوعيا، وذلك لتقدير عوامل التفوق من جهة أو الانحطاط من جهة أخرى.

-رابعا: كما لا تكون الخلال الخيرة مثبتة في أنساق الاجتماع البشري وسلوكياته، إلا إذا كانت معززة من طرف الشرع الذي يعطي لها طابع الاستمرارية في التشييد والبناء، فيغدو البناء الحضاري غير منفصل تماما عن قواعد التمكين الإلهي في الأرض، وهي الاستخلاف والتكريم والعمارة.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

1. عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، (دط) الدرا الذهبية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م.

المراجع:

1. أحمد عبد الحليم عبد السلام ابن تيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1993م،

2. أحمد المبارك: آراء ابن تيمية في الدولة ومدى تأثيرها في المجال الاقتصادي، ط03، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1970م.

3. إسماعيل زروخي: الدولة في الفكر العربي الحديث، ط1، دار الفجر، القاهرة،، 1999م.

4. بن الصغير ابن عمار: التفكير العلمي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر، (دت).

5. سالم حميش: الخلدونية في ضوء التاريخ، (دط) . المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2006م.

6. شريط عبد الله: الفكر الأخلاقي الخلدوني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1975م.

7. شوقي إبراهيم أباظة وعبد العزيز الغنام: تاريخ الفكر السياسي، د.ط، دار النجاة، بيروت، لبنان، 1973م.

8. عبد الله العروي: الإيدبولوجيا، ط05، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، 1993م.

9. محمد أركون: الاخلاق والسياسة، ط01، مركز الإنماء القومي. باريس، بيروت1990

10. محمد عابد الجابري التراث والحداثة، المركز الثقافي العربي،، بيروت، لبنان، ط1، الدار البيضاء، المغرب،، 1993م.

11. ناصيف نصار الفكر الواقعي عند ابن خلدون، دط، دار الطليعة بيروت، لبنان، 1994م.

12. Abdesselam Cheddadi : IBN KHALDUN,UNESCO: International Bureau of Education ,Paris, UNESCO: International Bureau of Education) , vol. XXIV, no. 1/2, 1994.